التصوير الفني في القرآن

يجب أن أشكر للأستاذ الفاضل عبد اللطيف السبكي المدرس بكلية الشريعة عنايته بنقد كتابي « التصوير الفني في القرآن » . ولكن ليس هذا هو الذي يشفع لي في أن أشغل حيزاً من الرسالة ! إنما هو قد أثار مسألة أساسية في القرآن وفي الطبيعة البشرية . أثار مسألة يوسف في : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » وهي مسألة تستحق المناقشة :

وقبل أن أتناول هذه المسألة الأساسية أستأذن القراء في سطور للحديث العابر عن المسائل الأخرى التي أثارها الأستاذ

١ — لقد لاحظ أن هناك بضعة نصوص أصابها الخرم عين مواضعها. وأنا أشكر له هذا التنبيه ، وآسف لوقوعها في الكتاب . وما دام هو قد لاحظها فأنا أرجوه أن يتفضل بإرسال بيان عنها إليّ ، للملاحظتها في الطبعة الثانية ، موفراً عليّ جهد البحث عنها

٢ — ولاحظ أني لم أبدأ عملي بالتسمية (ليرتفع عن نمط الروايات وكتب التسلية) ! وأحسب أن هذه التسمية إن كانت ضرورية في كل عمل فليست ضرورية في كتابي هذا ! إذ ماذا تعني التسمية إلا إثبات التوجه إلى الله بالعمل. فهل كتاب عن القرآن على نمط كتابي في تمجيده من الوجهة الفنية ، في حاجة إلى هذا الإثبات الشكلي ؟ إنه كله توجه ، وطبيعته كلها تسمية ، من صفحته الأولى إلى صفحته الأخيرة !

٣ — ولاحظ أن ليس بالكتاب دليل في نهايته . وله كل الحق في ملاحظته . ولكن من يعلمه : كم جاهدت لوضع هذا الدليل . وكم وقفت أزمة الورق وضرورات الطباعة بي عما أريد؟

٤ — ولاحظ — ولا أدري كيف — أنني أمنّ على الناس بما قدمت ، وهو ما عدت إلى الكتاب أبحث عنه فلم أجده . أم لعله يقصد ما ذكرته من أن الاتجاه إلى إدراك الجمال الفني في القرآن على النحو الذي اتجهته لم يكن من نصيب الباحثين في بلاغة القرآن — قدامى ومحدثين — فتلك حقيقة تاريخية لا بد من إثباتها ولا ضير فيها ولا منّ ... وفي قوله : « فلا يغمز الأوائل بالتجهيل أو القصور ونحن لا نبني إلا من الحصيات نجمعها من ساحاتهم الواسعة » .

فتلك قضية أخالفه فيها فيما يختص بالجمال الفني في القرآن . لقد أثنيت ما استطعت على رجلين اثنين : عبد القاهر والزمخشري . وعرضت نماذج من حسن فهمهم — المحدود بحدود الزمان — لبعض الجمال الفني في القرآن وهذا كل ما يطلب مني ... وأحب أن أقول بعد هذا : إنني — فيما يختص بالجمال الفني — لم أبن من حصيات أحد ... وهذه حقيقة تاريخية كذلك لا أرى أن تقديرنا للقدامى يكفي لإنكارها . ومن الأمانة للبحث العلمي ألا نبخس الناس أشياءهم .. ولكن من الأمانة كذلك ألا نعطيهم فوق ما يستحقون .

* * *

ثم أخلص إلى القضية الأساسية . قضية يوسف :

يتحدث الأستاذ عن تصويري ليوسف بالاستناد إلى ما ورد عنه في القرآن بأنه الرجل الواعي الحصيف ، واستشهادي بإبائه على مراودة امرأة العزيز ، وقولي « وسع ذلك لقد كاد يضعف » فيقول :

« وهذا تصوير غير فني لإنسان هيأه ربه للنبوة ، وكتب له العصمة من قبل ومن بعد . وأظن الأستاذ منساقاً في هذا وراء ما يقال : من أن يوسف إنسان لم تفارقه نوازع البشرية ، فهو يميل كما يميل أي إنسان ويكاد يضعف كما يضعف أي إنسان . وأظنه كذلك يحسب الآية في ظاهرها تؤيد هذا إذ قررت أن المرأة همت به وأن يوسف هم بها ، وليسمح لي الأستاذ أن أنبهه إلى أن هذا فهم سطحي غير سديد » ...

وأنا بدوري أحب أن أقول للأستاذ : إنني أخالفه فيما اتجه إليه . وأن هذه قضية مدروسة جيداً عندي — وإن لم أتعرض لها بتوسع في كتابي — لأنها من مباحث كتاب آخر أعده الآن عن « القصة بين التوراة والقرآن » . والمجال لا يتسع هنا للتفصيل إلا أن يشاء الأستاذ وقراء الرسالة أن أعرضها كاملة .

ولكن هذا لا يمنع من بضع كلمات :

لقد كنت حريصاً في تعبيري فقلت : « كاد يضعف » ولم

أقل إنه ضعف فعلاً . وليس فى هذا ما يخالف العصمة فى اعتقادى . فالعصمة لا تقتل النوازع البشرية ، ولكنها تقيم حولها الحواجز ، وتجعل الروادع فى النفس أكبر من الدوافع ... وهذا يكفى

ولقد عصم الله يوسف ، فجعله يكافح النوازع البشرية وينتصر عليها فى اللحظة التى لا ينتصر فيها إلا أولو العزم . وإن هـذا ليكفى ليقال عنه فى القرآن : « إنه كان من عبادنا المخلصين » .

وغير يوسف أنبياء مخلصون : منهم موسى ويذكر القرآن أنه قتل رجلا ثم تاب فتاب عليه الله . وداود وسليمان ويذكر القرآن أنهما قد فتنا ثم استغفر وأنابا ...

فالعصمة النبوية مسألة تحتاج إلى أفق أوسع فى النظر إليها . ولست ممن يميلون إلى أنها التجرد من جميع النوازع البشرية . وإن كنت أومن بأنها الانتصار على جميع النوازع البشرية .

ونفى الهمّ عن يوسف — بالمعنى الذى يريده الأستاذ — يحتاج إلى تأويل النص الصريح ، وأنا أنفر من التأويلات التى لا يدعو إليها إلا التلوّى التحرج . وإن دراستى لطريقة التعبير فى القرآن تبيح لى أن أقول : إن للنص القرآنى معنى واحدا فى كل حالة . وإن الاحتمالات المختلفة التى يرويها المفسرون للنص الواحد ، إنما تتوارى مع شىء من التدقيق ليبرز منها احتمال واحد هو الذى يتفق مع طبيعة التعبير القرآنى . وهذه مسألة لا يكفى الفراغ المتاح لشرحها اليوم . فقد أقوم ببيانها بتوسعة إذا وفقت .

على أن هناك عدة احتمالات فى موقف يوسف :

١ — فهل العصمة النبوية قبل الرسالة وبعدها ؟ أم بعد الرسالة فحسب ؟ هذا مبحث طويل .

٢ — وهل حادثة يوسف كانت قبل رسالته أم بعدها ؟ لا يذكر القرآن عن ذلك شيئاً . ولنا الحق فى أن نفهم أنها كانت قبلها . ولا سيما أن التوراة تحدد سنه فى هذا الوقت بأنها كانت دون الثلاثين .

٣ — ثم ألا يكون سجن يوسف تكفيراً عن النزعة التى قهرها وعصمه الله منها ؟ ليكون بعد ذلك « من عبادنا المخلصين » ؟

كل هذا يجوز ولكنى لا أحب الارتكان إليه ، لأن نفسه العصمة على النحو الذى أسلفت يغنينا عن كل هذه الاحتمالات .

وللأستاذ الفاضل شكرى على ما أتاح لى من هذا البيان .

سيد قطب

النبى ودائرة المعارف البريطانية

لاحظت فى الجزء الخامس عشر من دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٣٢ اعتباراً من الصفحة ٦٤٧ فى البحث عن حياة منقذ البشرية الأعظم محمد بن عبد الله هذه الجملة فى مفتتح الحديث وبالخط البارز (Mohammed as despot of yathrib) ولا يخفى ما يعنيه هذا الوصف (Despot) الذى لا يليق أن يوصف به ذلك النبى الأمين الذى أضاء بحكمته دياجير الظلمات الحالكة ، ورفع لواء العدل على الإنسانية فخلصها من نير العبودية ، وفكها من عقال الجهل ، وبسط السلام الحق ، وآخى بين الناس ، وأقر مبدأ المساواة فى الحقوق بين الأفراد ، وأزال الفوارق بين الطبقات ، وبصورة أعم فقد جاء بالحرية للانسان ؛ وهذا أمر اعترف به رجال التاريخ المنصفون من غير المسلمين ؛ فما بال دائرة المعارف المذكورة تتجاهل كل ذلك وتصفه بهذا الوصف الذى لم ترها تصف به من يستحقونه أمثال الإسكندر — ونابليون وأضرابهما من الحكام والمستبدين ؟

إن محمداً لم يكن يوما ما طاغية ولا مستبداً ولا حاكما مطلقاً كما يشهد التاريخ بذلك ، بل هو الذى علم الناس التسامح وجاء بالحكم الشورى الذى تدرج حتى صار يدعى اليوم بالحكم النيابى أو الديمقراطى .

هذا من جهة ومن الجهة الأخرى فقد وجدت الدائرة المذكورة تمعن فى هذا التجاهل فلا تستند إلى كتب التاريخ المهمة بل تستند إلى تاريخ الواقدى الذى تقول عنه إنها لم تجد غيره ، ثم هى فى الوقت نفسه تطعن فى هذا التاريخ وتقارنه ببعض الكتب الغربية الخرافية فى أوربا . والواقدى كما يعلم المتتبعون لحوادث التاريخ غير حجة ولا ثقة بالنسبة لغيره من المؤرخين الثقات ، هذا بالإضافة إلى أن البحث برغم استناده إلى ذلك التاريخ غير مستوف .

وظاهرة أخرى لاحظتها فى هذه الدائرة ، وهى أنها عند تعرضها لذكر كبار رجال الإسلام كالخلفاء الأربعة ومشاهير بنى أمية والعباسيين وغيرهم تأتى بنبذ مقتضبة عنهم لا تتجاوز بضعة أسطر فى حين أنها تكتب الصفحات الطوال عن نابليون وأمثاله وحتى عن رؤساء وزارات ووزراء وغيرهم .

هذا عرض موجز لما لاحظته ، وقد فكرت طويلا ثم ...